الشعر

طبع او صنعة او كلاهما

للامير شكيب ارسلان

كنت في العام الماضي اذ أنا على ضفاف النيل المقدس قد تمتعت في اثناء القراءات المستحبة بكتاب وقفت له وأرسلت طرفي فيه على مثل ما أتقلب بين امثال الرياض والجنان وأشباه اللآلئ على نحور الحسان الى ان انتهيت منهُ وأنا به جدُّ معجب وفي نفسي ان اعيد قراءته ألا وهو كتاب « الطبع والصنعة في الشعر » من قلم الاستاذ مفخرة الكتّاب السيد محمد الهراوي الذي اتى به من جملة بدائعه ونويت ان اقول فيه شيئاً اثبت به بعض ما بقي هذا الكتاب من نفسي واذا لم يكن في هذا الامر الا ما كتبه في خطابي القديم محمود سامي باشا البارودي اذ اقول

اذا سطر الغيث الرياض بوابل   فأيُّ بديع للقطار المترنم

أكان للناس عجباً ان يخرج الاستاذ الهراوي مثل هذا الكتاب ؟ لا والله بل العجب كل العجب ان يستكثر القدر على مثل هذا الحبر من الكتّاب إذا نسبوا اليه يقصرون ويقصرون وانهم في جانبه لكذا قال الله تعالى : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانيَّ وان هم الا يظنون) ولكن تأبى الاقدار الا ان تضع الاقدار وتجد الاميين ان تتبجح بالاوزار ولا تجر بالفضل لذي يخرجه ممن كان من الغافلين (ولا نكتم شهادة الله انا اذاً لمن الآثمين)

قبل كل شيء اريد ان اورد بعض الامثلة من اسلوبه الفائق في التعبير المبين عما في النفس من معنى محقق وخاطر دقيق قال في المقدمة : « وهو رأي جديد وليس ما ينافي عندنا ان يكون احد في قديم او حديث قد رآه وصحت عنده بيانه ثم حسبه في نفسه او بما عصمت الحريج » قال بعد ذلك : « ثم انتهت الحضارات فحضرت الشعر فيها حاجات من معانيها لحياة وتعقبت عليه من صنعها ما تعدت على غيره » ويقول « ليس بمطرد ان يكون انسان صانع شعر على الاطلاق فربما كان الشعر في فطرته بطبعه وسكنهُ بتكلفه في بعض حالاته ليصانع ممدوحاً او يجامل ظالماً او يداري سفيهاً او يزدلف الى ذوي النكد » ثم يقول : « وفي خوالج النفس ضروب بعيدة الغور قاصية المرامي فما يكون منها كذلك ليس كل شعر مقتدراً عليه في كل آن ولا

كل شاعر موفقاً له في كل حين فقد تهتاج النفس فيتقدح بها من المعاني والمشاعر والأخيلة وصور الاحساس ما نعلم وما لا نعلم ثم تنتظره في كل ذلك ما تدريه وما لا تدريه . ثم تموج ذلك بعضهُ في بعض فتموج هي به فاذا هي دنيا بأسرها من هذه الالهامات عالم تعرفهُ بما يلتمع في جوانبها من ضوء وما تجده مع هذا الضوء من حرارة وفي دورة ذلك ينقطع عنها الخبر ويفتر الوحي »

هنا تصوير لخوالج النفس الشاعرة لاسيما في حال انبعاثها بالشعر قلما وفق كاتب الى مثله . غاص الكاتب على أدق حركات النفس فانتزعها انتزاع من لم يبق ولم يذر وابرزها في قالب هو المثل الاعلى في الجلاء والأمد الاقصى في الجمع بين الجزالة والرقة وهنالك في وسط هذا المأزق الباقي الأسلوب العربي الخاص الذي لا تأتيه العجمة من بين يديه ولا من خلفه فمثل هذا فليعمل العاملون ان كان ثمَّ يطيق هذه الغاية البعيدة . والا فليتذروا بوصف خوالج النفس والغوص على دقائق حركاتها بالاساليب التي تنكرها العربية وقد تفهم مفرداتها ولكن لا تفهم مركباتها فكأنها لغة جديدة لا يفهم العربي منها قليلاً ولا كثيراً . وانظر الى عمق قوله « بما يلتمع في جوانبها من ضوء وما تجده مع هذا الضوء من حرارة » يريد ان يقول ان النفس المهتاجة الى الشعر تتجلى لها انوار ومعارف من جهة العقل وتثور بها اشواق وعواطف من جهة القلب وان المعرفة قلما تأتي إلاّ قرينة الحب وان النور قلما يكون بلا حرارة . وهذا في الذروة من الابداع والنهاية من سلامة الاختراع ولو لم يكن في هذا التأليف سوى هذه الفقرة لكفت بفحواها لكان كاتباً لأنها سحر بيانه فكيف وكله على هذا النسق المدهش لا جرم انهُ شأو لا يتناول . ثم تراه يقول « وليس كل احد تداخل نفسه هذه الالهامات يستطيع ان يعبر عنها بهذا اللسان الذي يتحرك بين الخوالج لا بين الافواه » اي ان الكلام في الفؤاد وان اللسان الذي يتحرك بين الفكين ... حديث القلب والبيان الادبي هو قوله وما ... الا رجع صدى تلك النجوى ... في الخوارج . ثم قال « واذن فليس كل احد يستطيع ان يكون شاعراً ولو كان ... الذي حذق الشعر وجمع صفوة الكلام ... الذي حفظ الشعر وجمع صفوته ... وقد تذكرت أني قرأت فصلاً شعرياً سبق لي في تعريف الشعر من مدة تنادي نصف قرن ... المنفلوطي رحمهُ الله في مختاراته ولست اورد من هذا الفصل الا جملة واحدة هي ... لأني ما جئت لأتكلم على نفسي وانما جئت لأحدث القراء بابداع الهباوي وتلك الجملة هي هذه .

« وحسبك ان الاولين الذين هم الاولية في البيان كانوا في الزمان كانوا يحسبون الشعر قوة من ورائه ... جعلوا له شياطين — وكان الشعر في الجاهلية دولة وملكاً واذا اجاده

واحد نبيوه تهيب الامراء واجلوه اجلال الرؤساء واذا تذبذبوا في الايمان برسول يرويهم آياته وأعجزهم بمعجزاته أحالوا اعجازه على الشعر كأنه الدرجة الثانية التي يمكن ان تدنو من الآيات من عتبة الوحي » ثم عالج الاستاذ الهواري قضية من قضايا تاريخ الفن هي هل النظم سبق النثر ام النثر سبق النظم فجاء هنا يفلق الصبح عن دجنة هذا البحث المظلم وقرن الى اصالة الرأي وقوة الحجة قالباً من البيان وطابعاً من الفصاحة انتظم اللفظ فيهما بالمعنى انتظام يتائم البحور في نحور الحور. وما قولك في بيان أحسن وصف له شرحه وأحسن خبر عنه عيانه وقد قال شوقي رحمه الله

ما كلام الانام في الشمس الا ... انها الشمس ليس فيها كلام

وقلت أنا في معارضة لذلك

ونمال الضرغام أوقع في النفس ... من القول انه الضرغام

لهذا أوثر ان انقل كلامه من دون تعليق فهو يقول : —

« ان أسلم طرق النظر ان نلتمس رجحان الرأي في هذه المشكلة عند الغريزة نفسها . فلا شبه بالصواب ان دواعي الحاجة المادية أسبق الى الانسان حين لم يكن شب عن فطرته في مهده الاول من دواعي الاحساس الروحي ولكن لا ريب ان هذا الاحساس صحبه في عهد المهد . فمدار النظر اذاً هذا السؤال : ماذا تفيد الانسان اول ما نطق ؟ هل كان اول كلامه تعبيراً عما يجده من لذة وألم او كان صوتاً ساذجاً يحاول ان يعبر به عن حاجته المادية ؟ ولكننا نقدر ان نقول من غير تحرز أن احتياج هذا الشكل الجديد للتعبير عن حاجته التي وقفه [illegible] عنه مخاوف الطبيعة ويحجبه من ثورتها [illegible] وهو في مهده الاول عن ان يمرح ويترنم [illegible] لا ريب ان فترات من اللذة والمرح كانت [illegible] كما كانت لا تفرغه بواعث البكاء والحزن ونحوها من المفزعات فاذا ترجح ان الانسان [illegible] الكلام ارسالاً قبل ان يشدو به [illegible] قبلية الطروء لا قبلية التكوين . [illegible] الشعر [illegible] تخرجه الصنعة [illegible] لا تزال زخرفة نطقة الصانع حتى يصير [illegible] الجمال الصناعي فالاحداث متأخر [illegible] مسافة تأخر الحضارة الانسانية عن [illegible]

والشعر بعد ذلك ضرب من كلام الناس [illegible] في صورته التي تحوكها [illegible] الالفاظ . اما هو في بطانته التي تحوكها القلوب من خيوطها فشيء لا يصدق في تسميته [illegible] كلاماً فقط وكيف لهذه التسمية ان تصح وهو لا يزال يتقلب في بطانته على الوان شتى فهو تارة تنغيم وتشجية او تهيم وتطربة وحيناً قلوب واجية وعيون دامعة وآناً اكباد ذائبة [illegible] متقطعة وربما لطف ورق فيما هو عاتر مشرد وربما صفا وراق وهو الرعد القاصف والسيل

الخارق . وصاحبه الذي يشد أوتار قلبه لتصب في كل قلب ما يراه هو هذا الشاعر الذي يغني لنفسه فيجد عنده كل احد ما يغني به على ليلاه » .

هذه اعوذجات من جمل هذا الكتاب الممتع يقاس عليها غيرها . وبالجملة فهو كتاب يوصي بنفسه بمجرد مطالعته ولا يحتاج الى من ينوه به والشيء العالي لا يحتاج الى من يصف علوه وانما وصفه مجرد النظر اليه . ولعمري عندما تحدث الاستاذ الهياوي عن الشعر تحدث بشعر بل بشعر من الطبقة الاولى فان كثيراً من عباراته وان كانت في الصورة نثراً هي من الشعر المحض الذي تتمنى الاوزان ان تتحلى به وتتحسر القوافي على قصورها عن شأوه . وفي هذا الكتاب من الشواهد الشعرية لا سيما في باب الغزل ما تذوب له القلوب وكل ما يذوب فانه يذيب وانما جاء بها للدلالة على ان الشعر طبع لا صنعة فانك تقرأ البيت فتجد كل حرف منه صادراً عن القلب او تجده كأنه صادر عن كل نبضة من نبضات القلب وترى اللفظ على قدر المعنى لا يشكو قصراً منه ولا طولاً اذ كانت يد الصنعة لم تمس هنالك شيئاً ولنورد بعض الامثلة

وبي من جوى الاحزان والبعد لوعة   يكاد لها قلب الشفيق يذوب
وما عجبٌ موت المحبين في الهوى   ولكن بقاء العاشقين عجيب

يقول . ان لوعته بين جوانحه لا بين شفتيه وهي بعد ذلك لوعة تذيبه من اجله وهو لا يرى من العجب ان تقبض عليها نفسه فيموت بهواه ولكن العجب عنده ان لا يموت بمثل هذا الهوى كل عاشق ملتاع وهو يقول ذلك يخبر به عن يقين ملأ قلبه لأنه يخبر عن حب الفطرة في شعر الفطرة . ويقول في منزلة اخرى من منازل الحب

فيا ويحتي [illegible] ويحكما مني   وما [illegible] من حبها نشيان
[illegible] غدية   ومن [illegible] رآني عانياً تفداني

قال : [illegible] انها صاحبته عنده [illegible] تصرفه عنها فيها . ولكنه يفهمنا [illegible] من يشبهه ? ومن الذي يشبهه كما يخففه عليها ? ومن [illegible] لا يكلفه رد الجواب لانه يعرف منه ما لا يعرفان . اما الجواب [illegible] حية [illegible] عنده [illegible] الحب قديم وقلب عفره حتى تفديه فهو بنفسه يفديها وهي بنفسها تفديه [illegible] كلام سهل يعطيك معنى سهلاً [illegible] وزنت معناه بين المعاني الضخمة لما عدلها لانك لا تعدو [illegible] ضخامة الخيال . ولكنه ايضاً معنى تخف القلوب لتستقبله على الآذان وتلتفت له الارواح قبل ان تعرضه العقول على ما عنده من وزن وكيل وهو كذلك لأنه معنى تقتضيه الفطرة فتحدث عنه بلغتها » اه

قلنا من الشعر عواطف ومنه خواطر فما كان منه من باب العواطف فهو شعر الفطرة الذي يتحدث عنه الهياوي . وما كان منه من باب الخواطر فهو الشعر الذي تألفه الصنعة وقد يغلب عليه العمل . والضرب الاول هو الذي يناط بالقلب ويريد بعضهم أن يحصر فيه الشعر والضرب الثاني هو الذي يلذ العقل وكثيراً ما تترنح له الأعطاف لسمو معانيه ودقة اشاراته فكل منهما واد يرتع فيه رواده . ويظهر أن الاستاذ الهياوي لا يرى هذا الضرب الثاني من الشعر فتراه يقول في صفحة ٥٠ من كتابه : « ولا أحسب بعد ذلك أن للفلسفة —على اعتبارها حقائق تقريرية— صلة بالشعر في أية حالة » ثم يرى نفسه قد بالغ في السلب فيستدرك على نفسه بهذه العبارات : « ولكنها تعود وثيقة الاتصال به اذا ذهبت مذهب النظر في هذه الحقائق من وجوهها المعنوية او اذا ذهبت مذاهب التفكير في حقائق الوجود حيث انها مظاهر جمال وروعة لهذا الكون المعظم فحينئذ يتصل الشعر معها بالفطرة او هي تتصل بها معه فيصبح أثراً من آثارها . فالذين يعالجون جبروت العقل أقفية المسائل الرياضية ويستقرون جزئياتها ويسبرون بواطنها ويقدرون ما ينتهي اليه ظاهر اليقين من براهين الثبوت او الانتفاء هؤلاء لا تأنس بالشعر فطرهم ولا تنضجه واذا طلبت على هذا شهادة الواقع فستجدها في حال الفارابي وابن سينا وضرائبهما من اصحاب هذا المنحى في كل جيل وكل عصر فهؤلاء أقصى غايتهم من الشعر ان يقولوا كما قال الفارابي

بزجاجتين قطعت عمري — وعليهما عولت أمري

فزجاجة ملئت بحبر — وزجاجة ملئت بخمر

فبذي أدون حكمتي — وبذي أزيل هموم صدري

قلنا ان هناك مثلاً سائراً يقول : تقوى على قدر النفس ... خير مرى ... اختاره الاستاذ أو هي نص في القضية ونثق به . ولا نستشهد من شعر الفارابي بقوله :

لما رأيت الزمان نكساً — وليس بالصحبة انتفاع

كل رئيس به ملال — وكل رأس به صداع

لزمت بيتي وصنت عرضاً — به من العزة اقتناع

أشرب مما اقتنيت راحاً — لها على راحتي شعاع

لي من قواريرها ندامى — ومن قراقيرها سماع

وأجتني من حديث قوم — قد أقفرت منهم البقاع

فلو كان أتى بهذا الشاهد لكان أبرز الفارابي بغير الحلة التي ابرزه بها وسلم له بالنقد ان الفارابي من شعراء الفلاسفة وفلاسفة الشعراء وان كان شعره على كل حال ليس بشعر الفطرة . ثم قال : « او كابن سينا في قصيدته التي لم يشع له شعر سواها والتي يقول في مطلعها

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

لحظ الفارابي من الشعر في اياته — التي اوردها الاستاذ لا التي اوردها انا — لا يختلف عن حظ المغني المزكوم من حسن الصوت وجودة الغناء . وابن سيناء بانه الشعر في قصيدته آنفاً الذكر حيث به ونكبة هو الذي سنذكره بالقصر والاكراه لاياتي شيئاً في خاطره وليجعله رمزاً للنفس التي قيل انه يريدها . والسبب في ان الشعر لا يتسق لطبع هؤلاء ان الفلسفة التقريرية لا تزن الاشياء بميزان الخيال ولا تراها ببصيرة القلب ولكنها تزنها بميزان الحقيقة الواقعية . فأصحاب هذه الفلسفة يتناولون الاشياء من مادتها الصلبة وجوهرها اليابس لا بالتخيل والوجدان الذي يفكر به المثال في قطعة الحجر بين يديه ليرى كيف يتخذ منه تمثاله بل بالذهن المقتحم المصمم الذي ينطلق به من ينقب على الركاز جوانب الارض ليكشف خبيئتها . فاذا اطلق وصف الفلسفة على تفكير المتأملين من مرتادي الحق والجمال فهنالك يأتي فلاسفة التأمل الاحساسيون اولئك الذين يمتزج فيهم صفاء العقل ونقاء الحس ويتقابل في فطرتهم أمن الطريق وسلامة الغاية . فان كان للشعر في هذه الفطرة ينبوعه سكبوه على الانسانية هدى من نور الارواح وافاضوه ريًّا من قطرات القلوب

ولقائل ان يقول : أردت ان تصف كتاب المهباري فما زدت على نقل كلامه بعينه . قلت : ماذا اصنع اذا كان منقولي خيراً من مقولي . ثم ماذا أصنع اذا كان لا يزاد على كلامه شيء تزانا فأخذ الشاهد بعد الشاهد تنويراً او متاعاً للقارىء بأسلوبه البديع وكذلك عجزاً عن تلخيصه اذ كان قد بلغ من البلاغة حداً امتنع فيه عن التلخيص وعلا على التحصيل

ولنقف بالقارىء عند هذا الحد ولنحله على الكتاب نفسه فانه أصدق عن نفسه خبراً وقد قيل ان الحواشي مع المتون والزيت مع الزيتون . لكن كتاب « الطبع والصنعة في الشعر » لم يدع مجالاً لحواشي فوسع من صنيعه ولا متعصب لا نزاع في ان الشعر الحقيقي هو الطبع ولا مشاحة في ان الشعر الذي هو والشعور من منبع واحد لا يمكن ان يكون في حضن الصنعة لأصحاب وسيلة وموهبة ودربة وريادة في شعوب النظم الشعري وأمداً بعيداً في دلالة الاحساس في ان يرى الشاعر غير نفسه لا يقدر ان يرى سائر الناس غير انفسهم وان يشعر بكثير مما يجري به حسه فلا يمر من هؤلاء ساكناً ولا يستقر حاضراً وانما هو يثير منه حركة ويبعث كوامن يحمل ضمائر الشاعر متاعبه اضعافاً . هذا وعلى قدر ما يكون الطبع شفافاً وتكون النفس صافية رقيقة لارتسام المرئيات فيها واشتمال المؤثرات على صفحتها يكون صاحب ذلك الطبع وتلك النفس شاعراً مطبوعاً مجيداً وربما كان عبقريًّا . الا انه لا يكفي لكون الشاعر مطبوعاً مبدعاً ولاسيما لكون عبقريًّا

ان يرق فيه الشعور ويرهف الاحساس وتشتد قوة التصور ويتضاعف الخيال دون أن يفاض على تلك العواطف التي تهتف بها فطرة الشعر وهاتيك الخوالج التي أوتيها بالفطرة ملابس من البيان تملك على السامع مشاعره تأتي فيها اللغة تجري انذياحا وتفيض من مختلف نواحيها الأدب طامياً تياره فان الشعور مهما رهف والخيال مهما جمح والمعنى مهما دق ان لم تكن ثمة لغة بهية وطبعة ملية من دون كلفة وعبارة ألقت عليها الفصاحة رواءها ومدت رواقها خرج الكلام غثاً بارداً تعترضه ركاكة قائله متانة لبه ولا عاضت قوة معناه من ضعف لفظه فلم يبلغ فيه قائله المراد وربما كان اللفظ في واد والمعنى في واد. ولا ينفع بعد فوت اللغة رقة عاطفة ولا إلهام صورة ولا صحة فكر ولا سداد حكم كما لا يجري عند فقد الفطرة الشاعرة واصطناع [illegible] صياغة قلب رشيق ولا متانة تركيب أنيق ولا قوة لغة مفصحة ولا عذوبة عبارة مبدعة وكم من ناظم تود ان تخاطبه بمثل قول القائل

فقل انا وزانٌ وما انا شاعرُ

اذاً لا بدَّ للشاعر الذي يحكم الناس له بالشاعرية لا بمجرد مراعاة الوزن والقافية أن يستكمل في نفسه موهبتين عظيمتين لا تتم أدواته الا بهما . الأولى : روح الشاعرية الفطرية التي من أجلها قيل : فلان شاعر مطبوع والتي كان القدماء من العرب يعبرون عنها بشيطان الشعر فقد جعلوا لكل شاعر شيطاناً انتزعوه من نفسه وأطلقوا عليه اسماً خاصاً حتى كأنه غيره وهو جنه . وكان الاغريق يسمونه باله الشعر Muse او بالآلهة الشعر ويجعلون لكل شاعر آلهة توحي اليه . والمعنى واحد . والثانية : ملكة الابانة عن النفس بأحسن الأساليب وهي الملكة التي من فقدها لم يمكن ان يكون شاعراً إذ الأمر كما قال المثل : ليس لمقوص البيان [illegible] بانوحه رونق [illegible] . وكذلك الشاعر الناقد الفرنسي بوالو [illegible] كل الفاظ تأتي العبارة ان فاتته اللغة كان كلامه رذلاً . فمتى اجتمعت للانسان هاتان الموهبتان كان الشاعر حقاً وكان من مواهب الله تعالى على الارض. وليست الصنعة بما يأتي [illegible] التعمل بالغ ما بلغ [illegible] الذي يبدأ به الشعر ومنه تجري ينبوعه هو الفطرة . وتحت هذه القاعدة [illegible] هذه السطور وعلى كل حال لم تظفر يدي بكتاب في هذا الموضوع أجمع ولا أوعى بما [illegible] في معنى ولا أشرح لمصدر ولا أعلى من حيث الانشاء ولا أبين لدقائق الانشاء من كتاب " الطبع والصنعة في الشعر " للمجيد الكبير الاستاذ محمد الهراوي [illegible] الله به راية الادب وزين بكتابه مواسم العرب فهو في هذا الفن تأليف طريف بديع وحده صحة قواعده وعذوبة شواهده

(ذلك الفضل من الله)

جنيف — سويسرا

شكيب ارسلان